فتاريخنا العربي المعاصر ، في نصف القرن الاخير ، تصاعد من غير ريب ، ولكن بذبذبة شديدة القفز والانحدار واحيانا بحدة شديدة .

فضياع الاسكندرون ، وعربستان ، وفلسطين ، وفشل الوحدة المصرية ــ السورية . . . هذه كلها منحدرات في مسيرة تاريخنا المعاصر ، تعادلها ربما ، تلك القفزات التي سجلها خط المسار بزوال الملكية في أكثر من قطر ، وتقبل الاشتراكية كفكرة ، والوعي على الوحدة والنضال من أجلها ، ونمو الحركة الوطنية الجماهيرية، وقيام الثورة الفلسطينية المسلحة الى غير ذلك مما نراه من ايجابيات هنا وهناك .

ومن المؤكد ان الدراسة النقدية لتجاربنا في نصف القرن هذا ، ستكشف عن كثير من الاخطاء والخطايا التي ارتكبها من تصدي لمهام المسؤولية من قادة ، على الصعيدين القطري والقومي .

ولا أظن ان « التجربة النضالية » الفلسطينية خلو من هذه الاخطاء وهذه العيوب ، وذلك على الرغم من أن «التابو» لم ينحسر نهائيا بعد عن البحث في تاريخ هذه التجربة، وكأن قدسية القضية قد انسحبت كذلك على اخطائها فباتت الاخطاء كذلك مقدسة لا تجرؤ عين الناقد على كشفها وان كشفتها عجز لسانه عن ترددها وتسجيلها .

ولست ادعي وانا أشير الى هذه القضية بالذات ان نقد التجربة الفلسطينية النضالية هو بالامر الهين .

لان القضية الفلسطينية ، وكما كشفت الايام ، من أشد قضايا عالمنا المعاصر تعقيدا ، ولان عدو الشعب فيها يختلف كثيرا جدا عن العدو التقليدي للشعوب والذي عرف خلال المئتي سنة الماضية بالاستعمار .

ان الصهيونية كأيديولوجية ، معتمدة على اليهود بالذات ــ وهم ليسوا كغيرهم من أبناء ما تعرف الارض من مذاهب ــ بتحالفها الذكي مع الاستعمارين القديم والجديد ، تجسد مفهوما جديدا للاستعمار لم يعرف له التاريخ من مثيل .

انها مشكلة فلسفية ونفسية تستحق وقفة كبرى ، عندما يكتشف الانسان ان اليهودي في موسكو ــ وبعد خمسين سنة من الحياة في ظلال الشيوعية ــ يلتقي بنفس الحماس على نفس الآراء السياسية مع يهودي الولايات المتحدة والتشيلي واليمن .

انها مشكلة سياسية تستعصي على الفهم أن تجد الاميركي الليبرالي يستسلم في نيويورك لارادة اليهودي هناك في اقامة المجتمع المفتوح غير الديني ، في الوقت الذي تجده يدافع عن هذا اليهودي بالذات في بناء المجتمع الاسرائيلي المتعصب والمغلق . بل واكثر من ذلك تجد ذلك الاميركي يساوم السوفياتي من حسابه التجاري الخاص كي يفتح الاخير ابواب بلاده للهجرة اليهودية الى اسرائيل .

وكما قيل ، أكثر من مرة ، وباختصار ، ان العرب يواجهون في قضية فلسطين اكثر العقائد رجعية في الفكر وأكثرها وحشية وتخلفا ، ولكنها في نفس الوقت أكثرها تمتعا بأحدث قدرات التكنولوجيا والعلم الحديث .

ومن هنا فان التجربة النضالية ضد هذا العدو ، وفي مرحلة تمتد عبر سنوات طويلة من حرمان الامة العربية من ارادتها الحرة والفاعلة ، لم تكن بالتجربة الهينة . وليس من السهل اليسير الاشارة الواثقة الى مواقع الخطأ والصواب فيها ، ولا سيما بالنسبة للمواقف المصيرية .

●

وبكثر هذه الايام الحديث عن هذه التجربة ، ربما ليس بدافع علمي تأريخي مجرد ، وانما لاسباب سياسية وتوجيهية محددة .